مقدمة لابد منها

إنها ليســت قضيــة تاريخ مضى..
فالقضية ما تزال معنا حتى الآن.

فيما بين يوليو ١٩٦٧ وأغسطس ١٩٧٠ وقعت فى الشرق الأوسط حرب كبرى قال عنها الأصدقاء والأعداء من البداية إنها (الحرب المستحيلة). لقد أصبحت إسرائيل تحتل سيناء وغـزة والضفة الغربية والجولان، وجيوش مصر والأردن وسـوريا فـى حالة انهيار كامل، ووزير الدفاع الاسـرائيلى يقول علنا: لم يعد أمامنا سـوى الجلوس بجوار التليفون، لكى يستمع العرب إلى شروطنا، والملك حسين يعرف رقمنا؛

وفى موسـكو، كانت القيادات السـوفيتية تستقبل اثنين من الرؤساء العرب، هما هوارى بومدين رئيس الجزائر، وعبد الرحمن عارف رئيس العراق، لكى يديروا معهما مناقشات غاضبة ومتفجرة خلاصتها: لقد استولت إسرائيل منكم على أحدث أسلحتنا، **وقامت بتسليمها** إلى الولايات المتحدة، وهى الآن يتم فحصها والتعرف إلى أسرارها فى معامل **البحوث بالولايات** المتحدة وألمانيا الغربية، والعرب لا يملكون الآن أية قدرة على القتال، **والحل أمامكم** هو أن تتفاهموا مع الولايات المتحدة وتعلنوا إنهاء حالة الحرب مع إسرائيل.

وفى واشـنطن، تلقى الرئيس الأمريكى ليندن جونسـون تقريرا سريا **من مستشاره** للأمن القومـى عن عملية «قتـل الديك الرومى».. أصبحت السياسـة الأمريكية **ترى بمقتضاه** أن الفرصـة الذهبية حانت أخيرا لكى تبتلع كل دولة عربية شـعاراتها عن القومية العربية، وتنكفئ على نفسها منعزلة عن الدول العربية الأخرى، وتقبل الحياة فى ظل تفوق عسكرى اسـرائيلى تحت إشـراف أمريكى، وتنفذ ما تمليه إسرائيل عليها من مشروعات تستهدف «التعاون الاقليمى».

أما «الديك الرومى»- جمال عبد الناصر- نفسه المفترض أنه تم قتله، فقد جلس وحيدا فـى بيته بالقاهرة واضعا رأسـه بين كفيه، وفى إحدى اللحظـات تمتم جمال عبد الناصر بكلمات لم يعد بعد ذلك إلى تكرارها، حينما قال: لقد عرفوا.. كيف يصطادونى.

بعدهـا وضع جمال عبد الناصر مسدسـا إلى جـواره، مقررا ترحيل أسـرته فورا خارج القاهرة، فلم يعد يمنع إسرائيل من دخول القاهرة سوى.. سبع دبابات.

وفى العاصمة اليوغسـلافية بلغراد، تلقى الرئيس اليوغسلافى جوزيف بروز تيتو رسالة سـرية من رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ليندون جونسون يطلب إليه فيها إبلاغ جمال عبـد الناصر فـى القاهرة بأنه لن يمضى إلى أبعد من ذلك فـى إذلال مصر، ولذلك فليس مطلوبا من مصر أى تفاوض مباشر مع إسرائيل أو اعترافا بها، لكن هذا يعنى- أيضا- أن هناك ثمنا مطلوبا من الدول العربية، ويجب على مصر ألا تعترض عليه.

وفى العاصمة السعودية الرياض، قام الملك فيصل باستدعاء السفير الأمريكى لكى يبلغه بأن السعودية تصر على الانسحاب الاسرائيلى الكامل وفورا من الأراضى العربية، وتطلب الحصول على موقف أمريكى رسمى ومحدد، فى هذا الاتجاه، لكن السفير الأمريكى جاء بالرد فى مذكرة رسمية مكتوبة تقرر فيها الولايات المتحدة أنه لابد من تعديل الحدود على الأقل- بين الأردن وإسرائيل- وهو ما قامت السعودية فورا بإبلاغ الدول العربية المعنية بأنها ترفضه بالكامل.

فى هذا المناخ بدأت «حرب مستحيلة» على جبهة قناة السويس فى مصر بين جيش مصرى وليد، وفى ظل حالة معنوية يختلط فيها اليأس والغضب، وبين احتلال إسرائيلى يملك بالفعل كل وسائل التفوق العسكرى، وينذر بالمزيد.

لقد كان طبيعيا أن تتلقى مصر فى تلك «الحرب المستحيلة»- حرب الاستنزاف- ضربات موجعة من اللحظة الأولى.. إن مصر اضطرت إلى قرار صعب هى التى اختارته لنفسها.. وهو تهجير أربعمائة ألف مواطن خارج بيوتهم، يكفى أيضا أن كل المعونات العربية التى تلقتها مصر فى تلك الفترة كان يتم إنفاقها خلال ثلاثين يوما من السنة، إذا اختصرنا كلمة «التكاليف» إلى حدها الأدنى المتواضع تماما.

لقد تساقط فوق رؤوس المصريين ذات صباح، ولمدة ٢٦ ساعة، عشرون ألف طن من القنابل الإسرائيلية- وهو ما يعادل القنبلة النووية الأمريكية الأولى التى تم إسقاطها على هيروشيما ونغازكى فى الحرب العالمية الثانية- وبعدها أعلنت اليابان استسلامها بالكامل، بلا قيد ولا شرط.

مع ذلك، استمرت تلك «الحرب المستحيلة». لقد سقط الرجل الثانى فى الجيش المصرى الفريق أول عبد المنعم رياض شهيدا فى الخندق الأول على حافة قناة السويس، لكن الشعب المصرى خرج بقيادة جمال عبد الناصر فى جنازته يصر على الثأر.. ويرفض الاستسلام، لقد تلقت مصر إنذارا رسميا من الولايات المتحدة بأن توقف تلك الحرب «فى الحال» و«بلا قيد ولا شرط» حتى لا تتعرض المنشآت الاقتصادية الكبرى فى مصر إلى التدمير الفورى.. لكن مصر مضت بإصرار فى تلك «الحرب المستحيلة» لقد سقط سبعة آلاف من الشهداء المصريين، معظمهم سقطوا على عتبات بيوتهم من القنابل الإسرائيلية التى وصلت إلى مسافة ١٥ كيلو مترا من القاهرة، وبعضهم كانوا أطفالا فى مدارس ابتدائية، لا تتجاوز أعمارهم الثانية عشرة.

بالتدريج، وبتضحيات غالية، بدأت كل الأطراف تعيد حساباتها.

إن الذين خاضوا الحرب من المصريين، مدنيين وعسكريين، لم يكن هدفهم تحرير سيناء، فكما ستثبت الوثائق، كانت سيناء معروضة على مصر رسميا بغير أى قتال ولا قيود، منذ الثانى من نوفمبر سنة ١٩٦٨، لقد كان المقاتلون فى تلك «الحرب المستحيلة» يقاتلون من أجل الضفة الغربية والجولان وحقوق الشعب الفلسطينى، وكانوا يعلنون ذلك صراحة لكل من يعنيه الأمر، وقد كان هذا هو فى الواقع جوهر المشكلة من بدايتها.

لقد جرت فى مصر عواصف كبرى. لكن أسوأ ما فيها هو أنه أصبح ممنوعا الإشارة إلى تلك «الحرب المستحيلة»- حرب الاستنزاف- جملة وتفصيلا، إنها- رسميا- حرب لم تحدث، وشهداؤها لا أسماء لهم ولا ذكر عنهم، بل وفى أحيان عديدة، تجرى السخرية من تضحياتهم.

ومن أجل هؤلاء الشهداء فقط، نعود الآن إلى فتح ملفات تلك الحرب بكاملها. إنها ليست قضية تاريخ مضى، تلك نظرة شديدة السطحية وعميقة الغرض، القضية ما تزال معنا حتى الآن- يكفى أن نعلم مثلا، وبالوثائق أن تضحيات أولئك المصريين، غير المعترف بأسمائهم حتى الآن رسميا، هى التى ضمنت وقتها استرداد الضفة الغربية المحتلة بالكامل، ومعها حق الفلسطينيين فى العودة إلى ديارهم التى شردوا منها فى سنة ١٩٤٨، وهو ما يكافح الجميع للحصول على البعض اليسير منه الآن- بعد ٣٠ سنة-، القضية هى مصر، والضفة الغربية، والجولان، ومستقبل العالم العربى كله، هذا هو ما أسقط أولئك الشهداء المصريين «رجال اليوم السابع» دفاعا عنه.

وبكل التواضع، وأيضا بكل الاعتزاز، أقول: إن النسبة الكبرى من الوثائق التى ستنشر بالكتاب هى وثائق يتم نشرها لأول مرة. بل إننى أزعم أن الحقائق الجديدة التى سيكشف عنها هذا الكتاب- إذا صدقت النوايا- تؤدى إلى إعادة النظر فى كثير من المفاهيم السائدة طوال السنوات الأخيرة، وأتمنى- وأكرر قولى: أتمنى- أن يتقدم أى معترض بوثائق تؤكد غير ما سينشر بهذا الكتاب، وهى وثائق تتيح لنا معلومات ضحى إخوة لنا، وزملاء لى شخصيا بحياتهم.. بغير انتظار لها، لقد كان يكفيهم الاقتناع.. والعزيمة.. والإصرار على حياة أفضل لعالمهم العربى كله.

إننى أرجو أن يحمل هذا الكتاب «الحرب المستحيلة» «اليوم السابع» بعض العزاء لشهداء الجيل الذى أنتمى إليه- فهذا الجيل دفع ثمن تلك الحرب عن اقتناع، وبنفس راضية

وقلوب مطمئنة إلى صحة القضية التى حاربوا من أجلها، وكثير منهم ضحوا بمستقبلهم، وكثير ضحوا بحياتهم فى سبيلها.

لقد ترك هؤلاء جميعا من البداية وظائفهم التى شغلوها، أو كانوا يحلمون بها، لكى يتقبلوا الحياة لشهور طويلة داخل خنادق فى الصحراء، متناولين طعامهم مخلوطا ببعض الرمال والكثير من شظايا القنابل المتساقطة فوق رؤوسهم.. إيمانا بقضية محددة، سحب البعض إيمانهم بها فيما بعد، قضية.. أن تكون لك كرامة، وأن تعيش مرفوع الرأس، وبالنسبة لهم لم تكن تلك القضية جملة تقال بشكل عابر فى حديث.. أو مزايدة فى خطاب عام، لقد كانت قضية حياة.. أو موت، وقد اختاروا الموت.

إلى هؤلاء أولا.. أهدى الكتاب.

أما الصحف التى تحملت قلمى فى غربته، أوجه إليها شكرى.. فقد كانوا يحثونى على المزيد من المشاركة بعد أن حرمت تعسفا من الكتابة فى جريدتى «أخبار اليوم».

ويبقى الحكم فى النهاية للقارئ.. فمنه فقط، يستمد أى كاتب حيويته وتجدده.

محمود عوض